المحاضرة الثامنة: القارئ وتحليل الخطاب

كانت اللسانيات الكلاسيكية متأثرة بـ سوسير تركز على الجملة كنظام مغلق، مهمشةً السياق ودور المتلقي (كأننا ندرس محرك السيارة دون الطريق). في منتصف القرن العشرين تجاوز تحليل الخطاب هذا القيد، فـ "اللغة الحقيقية" تكمن في النص والخطاب المتجاوزين للجملة. هذا التحول نقل التركيز من "ماذا قيل" إلى "لماذا وكيف قيل"، معتبراً الخطاب كوحدة اجتماعية تواصلية. الأهم هو أن هذا التطور قلب دور القارئ من مستقبل سلبي (كمسجل) إلى شريك فعال في إنتاج المعنى.

لذلك، فإن سؤالنا الجوهري اليوم هو:

كيف تحوّل القارئ من مستهلك سلبي للمعلومة، إلى شريك فعال بل ومُنتِج رئيسي للمعنى في الخطاب؟ وما هي الآليات اللسانية والمعرفية التي يستخدمها القارئ ليجعل من مجرد "نص" خطاباً ذا دلالة؟

القارئ وتحليل الخطاب: القارئ بين النص والإدراك

1.القارئ الضمني (Implied Reader) أساس الثورة التفاعلية

انطلق التحول نحو إشراك المتلقي من نظرية التلقي (Rezeptionstheorie) في إطار النقد الأدبي، وتحديداً مع مدرسة كونستانس .أسس هانز روبرت ياوس (Hans Robert Jauss) وفولفغانغ إيزر (Wolfgang Iser) رائدَي هذه الثورة النقدية مفهوم "القارئ الضمني (Implied Reader)"، وهو القارئ الذي "يُنشئه" النص نفسه من خلال بنيته. إنه ليس شخصاً حقيقياً، بل مجموعة من الاستراتيجيات والتعليمات المضمنة في النص، والتي تدفع القارئ الفعلي لملء "البياضات" أو "الثغرات (Blanks)" غير المكتملة. يرى إيزر أن هذه الفجوات هي التي تضمن تفاعلية القراءة، حيث يحقق القارئ اتساق النص ويصنع المعنى. هذا المفهوم نقل الاهتمام من سلطة المؤلف إلى الأثر الذي يتركه النص في المتلقي، لكنه بقي محصوراً في التفسير الجمالي.

آليات ملء الفجوات (إيزر): تفعيل التفاعل

يرى فولفغانغ إيزر (Wolfgang Iser) أن القارئ لا يبدأ عملية الفهم إلا عندما يواجه "البياضات" أو "الثغرات (Blanks) "في النص. هذه الثغرات هي الآلية الإجرائية الأولى للتفاعل.

- **الآلية الإجرائية:** القارئ لا يستقبل النص كصورة كاملة، بل يواجه فجوات مقصودة (مثل التغيير المفاجئ في المشهد أو السرد دون تفسير).
- **دور القارئ:** يصبح القارئ مجبراً على ملء الفراغ عبر ربط الأجزاء المتباعدة، مستخدماً خياله وتجاربه الشخصية لتحقيق اتساق (Coherence) النص داخلياً.
- **النتيجة:** القارئ الضمني هو من ينجح في تخطّي هذه العقبات، محولاً النص من مجرد احتمالات إلى حقيقة متماسكة في ذهنه. هذا هو الإجراء الذي يحدد كيف يُبنى المعنى أثناء القراءة.

2.القارئ النموذجي(Model Reader) : كفاءة التأويل والسياق

في سياق متصل، قدم أومبرتو إيكو (Umberto Eco) مفهوم "القارئ النموذجي (Model Reader)"، الذي يركز بشكل أكبر على كفاءة التأويل بدلاً من مجرد تفاعلية الفراغات. القارئ النموذجي هو ذلك المتلقي المثالي الذي يفترض المؤلف وجوده، وهو القادر على استخدام القواعد اللغوية والموسوعة المعرفية المشتركة لتفسير الخطاب وفقاً للمقاصد المرسلة. يعتبر إيكو أن نجاح النص في التواصل يعتمد على قدرة المؤلف على توقع هذا القارئ النموذج، وكتابة النص بطريقة تتوافق مع قدراته التأويلية ومعرفته المشتركة بالعالم. هذا المفهوم عزز فكرة أن القارئ طرف فاعل ومقصود، ولكن بطريقة ترتبط بحدود "الكفاءة" المتاحة له.

يربط أومبرتو إيكو (Umberto Eco) إجرائية القارئ بالكفاءة والمعرفة المشتركة، موضحاً أن الخطاب هو في الأساس "آلة كسولة "تحتاج إلى طاقة القارئ لتشغيلها.

- **الآلية الإجرائية:** يضع المؤلف افتراضات حول "القارئ النموذجي(Model Reader) "، ويتوقع منه استخدام "الموسوعة المعرفية المشتركة "أو الخلفية الثقافية لتأويل الإشارات النصية.

- **دور القارئ:** القارئ يتوقع أن النص يسير وفق قوانين تأويلية معينة (مثلاً: إذا كان النص مقالة علمية، يتوقع المصطلحات الدقيقة). يفشل الخطاب إذا لم يمتلك القارئ النموذجي الكفاءة اللازمة لتفعيل هذه التوقعات.
- **النتيجة:** القارئ الناجح هو الذي يتبع الإجراءات التأويلية التي وضعها المؤلف (كالقراءة الساخرة أو الجادة)، وبذلك يتمكن من استخلاص القصد المقصود من الخطاب.

3.القارئ الإجرائي: الوحدة المعرفية في لسانيات الخطاب

القفزة الحاسمة إلى قلب الدرس اللساني جاءت مع اللسانيات المعرفية(Cognitive Linguistics) ، حيث تحول القارئ إلى "وحدة معالجة معرفية .(Cognitive Processing Unit) "في هذا الإطار، لا يُنظر للقارئ ككيان أدبي، بل كمفسر إجرائي يمتلك كفاءة إدراكية هائلة لفك شفرة الخطاب. يمثل تيون أ. فان دايك (Teun A. van Dijk) أحد أبرز أعلام هذا التوجه، حيث تجاوز التحليل البنيوي إلى دراسة العمليات الإدراكية لعملية القراءة والفهم. يؤكد فان دايك أن القارئ يبني "نماذج ذهنية (Mental Models) "للخطاب والسياق، ويستخدم الخلفية المعرفية (Schema Knowledge)في عملية الاستدلال .(Inference) فبدلاً من تحليل الروابط النحوية فقط، أصبحنا ندرس كيف يقوم القارئ بتشكيل "البنى الكبرى (Macrostructures) "للنص لتحديد موضوعه العام، مؤكداً أن القارئ هو الذي يمنح الأفعال اللغوية قيمتها التداولية والوظيفية.

آليات القارئ في فهم الخطاب: العمليات اللسانية المعرفية

لا يكتفي القارئ الحديث باستقبال الكلمات والجمل كما هي، بل يقوم بسلسلة معقدة من العمليات الذهنية التي تضمن إدراك المعنى الكلي للخطاب. هذه العمليات، التي تقع في صميم لسانيات النص المعرفية)خاصة عند فان دايك(، تشمل ثلاث آليات رئيسية هي أساس التفاعل بين النص والعقل.

أولاً: بناء البنى الكبرى(Macrostructures) : لا يمكن للعقل البشري أن يحتفظ بكافة تفاصيل النص أو الخطاب؛ سيكون الأمر عبئاً لا يطاق. لذا، يقوم القارئ بعملية تجريد إدراكي لا شعورية.

الهدف هو تكوين البنية الكبرى، وهي التمثيل الذهني للموضوع العام أو الفكرة الرئيسية للخطاب. يقوم القارئ بتحقيق ذلك عبر ثلاث قواعد إدراكية: الحذف (إزالة التفاصيل غير الضرورية)، والتعميم (تجميع معلومات جزئية تحت مفهوم أشمل)، والبناء (استنتاج معلومة كلية من سلسلة من الجمل). هذه البنى الكبرى هي التي تسمح للقارئ بأن يُلخص مقالاً طويلاً في جملة واحدة، وبالتالي فهي أساس فهمه العميق.

ثانياً: ملء الثغرات والفراغات(Gaps/Blanks) : لا يوجد خطاب كامل تماماً؛ فالكاتب أو المتحدث يتعمّد ترك بعض الفجوات المعرفية التي يفترض أن القارئ يمتلك مفاتيح ملئها. هذه "الثغرات "هي التي أشار إليها إيزر كنقاط تحفيزية لخيال القارئ، وفي السياق اللساني، هي نقاط تتطلب تفعيل الخلفية المعرفية المخزنة لدى القارئ. عندما يجد القارئ معلومة ناقصة أو غير صريحة، يقوم فوراً بالبحث في مخططاته المعرفية (Schemas) لإيجاد المعلومة المفقودة. هذه العملية تضمن اتساق (Coherence)النص داخلياً، حيث يصبح الخطاب "متماسكاً" بفضل المعلومات التي أضافها القارئ من عالمه.

ثالثاً: الاستدلال (Inference) واستخلاص القصد: الاستدلال هو أهم عملية إدراكية، حيث يذهب القارئ أبعد من المعلومات الصريحة ليُنشئ علاقات سببية أو منطقية أو تداولية بين الجمل. هذا الاستنتاج لا يعتمد على ما قيل فحسب، بل على القصد (Intentions) من وراء القول.

مثال تطبيقي: لنأخذ الجملتين: "كان الباب مغلقاً. أخرج الرجل مفتاحه من جيبه".

القارئ لا يقرأهما كجملتين منفصلتين، بل يستدل تلقائياً على معلومة لم تُذكر أبداً وهي: "سيقوم الرجل بفتح الباب ."هذا الاستدلال مبني على خبرة القارئ في العالم (الرصيد المعرفي)؛ فالأبواب المغلقة تُفتح بالمفاتيح. لو كان القارئ مجرد مستقبل سلبي، لكان كل ما يعرفه هو حالة الباب ومكان المفتاح، دون إدراك للحدث القادم.

إذًا، القارئ اللساني-المعرفي هو مهندس الخطاب، يستخدم هذه الآليات ببراعة ليحول الركام اللغوي إلى بناء معرفي متماسك وذي معنى.

القارئ.. المهندس المعرفي للخطاب

في ختام رحلتنا من لسانيات الجملة إلى فضاء الخطاب الواسع، يتضح لنا أن دور القارئ في التحليل لم يعد مجرد إضافة هامشية، بل هو محور العملية اللسانية والإدراكية برمتها. لقد كانت اللسانيات القديمة تدرس اللغة كبنية صماء، لكن تحليل الخطاب الحديث يدرسها كفعل حيوي يتم إنجازه في عقل المتلقي.

لقد رأينا أن القارئ لا يستقبل الخطاب كرسالة مغلقة، بل كـ "آلة كسولة) "إيكو (أو كبنية مليئة بـ "الثغرات) "إيزر (تنتظر منه طاقة التفسير والملء. وبفضل أدوات فان دايك، أدركنا أن هذا الملء يتم عبر إجراءات معرفية دقيقة:

1. بناء البنى الكبرى(Macrostructures) : لتلخيص الخطاب وفهمه ككل.
2. الاستدلال(Inference) : لتجاوز النص والوصول إلى القصد التداولي الحقيقي.
3. تفعيل النماذج الذهنية(Mental Models) : لربط الخطاب بالواقع والخلفية المعرفية.

إذا كان المؤلف هو من يُطلق الخطاب، فإن القارئ هو المهندس المعرفي الذي يُكمل بناءه ويمنحه الاستقرار الدلالي في ذهنه. لم يعد الخطاب "ماذا قيل"، بل "ماذا فُهم ولماذا."